الأستاذ أحمد عبد السّلام وتحقيق التّراث التونسي

جمعة شيخة

ودّع الجامعيون والمثقفون التونسيون يوم الأحد 12 ماي 2007 بمدينة المهدية الأستاذ الدّكتور أحمد عبد السلام الوداع الأخير، ووري جثمانه الطاهر بمسقط رأسه بحضور أفراد عائلته يتقدّمهم أخوه الأستاذ الدّكتور محمد عبد السّلام مع ثلّة من رجال الجامعة والفكر والثقافة.

لقد أسدل السّتار، ستار مسرح الحياة، عن جسم نحيف وعقل كبير وعمل عظيم وفكر مستنير، ومربّ فاضل : أسدل السّتار عن «المعلّم» الذي قال فيه أحمد شوقي (الكامل) :

قم للمعلّم وفّه التبْجيلا كاد المعلّم أن يكون رسُولا

وقد استحقّ أحمد عبد السّلام هذا اللّقب عن جدارة منذ أكثر من نصف قرن :

إنّه الأب المعلّم لأبنائه وإخوته، وهو أيضا الأب المعلّم لأجيال من خرّيجي الجامعة التّونسيّة منذ بداية عهدنا بالاستقلال : نجدهم اليوم في كلّ مكان يقومون بدورهم في بناء تونس الحديثة في كلّ دواليب الدّولة ومؤسّساتها.

إنّه المناضل الغيور على وطنه يدافع عنه بمبادئ يغرسها في العقول وعزيمة يبثّها في القلوب وأخلاق يصقل بها الضّمائر والنّفوس.

نجم هوى من سماء الفكر لكنّ نوره لن يخفت، أضاء بعلمه وسيضيء بآثاره، كما لم يخفت نور من سبقه من أقطاب الجامعة التّونسية وافاهم الأجل فهم عند ربّهم يرزقون أمثال الفاضل ابن عاشور والشاذلي النّيفر، والشاذلي بويحيى ومحمود المسعدي وغيرهم ممّن سقوا بجهودهم مع ثلّة من زملائهم شجرة العلم الزكيّة فأصبح أصلها ثابتا في أرض تونس وفرعها باسقا في سمائها : ألم تتعدّد الجامعات وكانت واحدة، وتنوّعت الكلّيات وكانت قليلة وانتشرت المعاهد العليا وكانت شبه منعدمة...

إنّ إرادة السّياسي الواعي وعقل العالم المستنير خَلَقتا وستخلقان في ميدان العلم تطبيقا وفكرا نظرا وعملا ما سيمكّن تونس حنّبعل وأسد بن الفرات وسحنون وابن الجزّار وابن خلدون وخير الدين والحدّاد والشابي، من أن تتبوّأ مكانتها بين الأمم المتقدّمة في أقرب الآجال.

وأحمد عبد السّلام هو نموذج للعالم الباحث، قد أوضح في رحاب جامعتنا الفتيّة بدروسه في التربية طريقا قويما، وأرسى في البحث منهجا صحيحا.

إن الحديث عن أحمد عبد السّلام في هذين الميدانين حديث ذو شجون لا يمكن أن تكفيه وريقات معدودات لذا سأكتفي في الحديث عن دوره في مجال البحث وسأختار جانبا واحدا منه وهو البحث في مجال تحقيق التّراث والتّراث التّونسيّ فقط.

في رحاب الجامعة التونسية :

قد لا يعلم بعض من طلبتنا اليوم أنّ البحث في مجال العلوم الإنسانيّة - وتحقيق التراث جزء منه - بالجامعة التّونسيّة قد بدأ سنة 1970 ببعث شهادة الكفَاءة في البحث العلمي. وكان عدد الأساتذة المشرفين على بحوث الطلبة لا يتجاوز عدد أصابع اليد. واهتم كل واحد منهم باختصاص معيّن من الاختصاصات الثلاثة: حضارة، أدب، لغة، وكان الاهتمام بهذه الجوانب يشمل التراث العربي جملة.

ورأى الأستاذ أحمد عبد السّلام بثاقب رأيه ونافذ بصيرته أنّنا في نهاية السّتينات من القرن الماضي وأوائل السبعينات بصدد بناء هوية تونس العلميّة وشخصياتها الثّقافيّة لذا قام بتوجيه بعض الطلبة ممّن أحرزوا على الإجازة في العربية والتّاريخ، إلى التراث التّونسي القابع في المكتبة الوطنية لنفض الغبار عنه وتحقيقه تحقيقا يستجيب إلى أحدث المناهج في نشر النصوص، ودراسته دراسة متأنّية تبرز فوائده وتستجلي خفاياه. ولم تكن استجابة هؤلاء الطلبة - وكنت أحدهم - لهذا التّوجّه تلقائيا. فقد هابنا الكتاب الأصفر المخطوط.

لكن الأستاذ أحمد عبد السّلام تمكّن، بدماثة أخلاقه ورحابة صدره وإيمانه العميق بهذا التّراث، الذي يمثّل شخصيّتنا وفيه نكهة زكيّة تعبق من ماضينا وفيه همسة خفيّة من أرواح علمائنا ومفكّرينا، تمكّن من استدراجنا إلى هذا الميدان الصّعب. وما إن دخلنا رحابه حتّى كان لعقولنا غذاء ولنفوسنا متعة.

ونرى من الواجب نحو أستاذنا الجليل المرحوم أحمد عبد السلام - نظرا إلى البعد الزّمني النّسبي عن هذه البحوث، وأغلبها إن لم نقل كلّها مازال قابعا مرقونا في مكتبتي كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس وكليّة الآداب بمنّوبة وكذلك بالمكتبة الوطنيّة - تقديم هذه البحوث حتّى ندرك الجهد الذي بذله الأستاذ مع طلبته بجعلهم يسبحون في بحر من بحور البحث ليس من السّهولة السّباحة فيه دون معلّم ماهر ومدرّب كفء، وكان أحمد عبد السّلام هو هذا المدرّب والمعلّم ؛ لقد أرسى سُنّة حميدة في الجامعة التّونسية هو تحقيق المخطوطات، ونرجو لهذه السّنة أن تستمرّ وتدوم حتّى نقوم بواجب مقدّس نحو تراث تونس العريق والأصيل.

وهذه البحوث حسب التسلسل الزّمني لمناقشتها هي :

البحث الأوّل :

حقّق فيه جمعة شيخة مخطوطا عنوانه «مفاتيح النّصر في التّعريف بعلماء العصر» لمؤلفه العياضي الباجي. وناقشت البحثَ لجنةٌ يوم 30 ماي 1970 متركبة من الأستاذ محمّد اليعلاوي رئيسا والأستاذ أحمد عبد السّلام مشرفا والأستاذ الحبيب الشاوش عضوا.

محتوى البحث : عرّف المحقق في بداية بحثه، بالمؤلّف وهو محمد بن محمد بن محمد الشريف المشهور بالعياضي الباجي وقد عاش في خضمّ القرن 12/ 18. ثم قام بتحقيق الكتاب وعنوانه «مفاتيح النّصر في التعريف بعلماء العصر» ولقد وضعه العياضي الباجي سنة 1153/ 1740 وفيه 22 ترجمة لأدباء

وعلماء من تونس عاشوا كلّهم في القرن 12/ 18 زيادة على ترجمة لعلي باشا حاكم البلاد وأبنائه الثلاثة يونس ومحمد وسليمان.

فالكتاب الذي أهداه المؤلّف لعلي باشا هو حينئذ كتاب تراجم وهو من ناحية أخرى كتاب أدب لأنّ المؤلّف يذكر إعادة، قصائد شعريّة ومقتطفات نثريّة لكل من ترجم لهم. وموضوع هذا الشعر والنثر هو تقريض كتاب في النحو وضعه علي باشا سنة 9-1138/ 6-1725. عنوانه : شرح «التّسهيل لابن مالك».

والكتاب بهذه التراجم والمنتخبات يُعدّ أوّل كتاب في تاريخ الأدب التّونسي. وبه فتح الباب لغيره من المؤلفين.

واعتمد المحقق على مخطوطات في المكتبة الوطنية بتونس أرقامها على التوالي 4585/ 1602/ 6821/ 18645.

البحث الثاني :

قام به أحمد الطويلي في جوان 1970 وتحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام بتحقيق رسالة حمده المناعي إلى البشير أحمد باي : وهي رسالة كتبها المؤلف المولود سنة 1273/ 1857 إلى الباي يمدحه فيها ويشكو من أعدائه وحسّاده. وغايته منها التقرّب إلى الباي وطلب خدمة بالقصر. ثمّ تعرّض إلى أعدائه بالهجاء والذمّ والشتم والردّ على وشاياتهم به وتبرئة نفسه ممّا يتّهمونه به.

وقد اعتمد المحقّق على خمس نسخ توجد بدار الكتب الوطنية تحت عدد 16511/ 1207/ 1759/ 18680/ 18304.

البحث الثالث :

قام به محمد التريكي بإشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام في جوان 1971 وعنوانه «تحقيق ودراسة لديوان محمّد باي». عرّف المحقق في بداية بحثه بالشاعر *محمّد الرّشيد باي المولود في 1122/ 1710 والمتوفّى* سنة 1172/ 1759 وهو ثالث البايات الحسينيين. ثمّ وصف المخطوطات المعتمدة وهي موجودة كلّها بدار الكتب الوطنيّة بتونس تحت الأرقام الآتية : 2198/ 3837/ 16624.

وفي مرحلة ثانية تناول الباحث الدّيوان بالتحليل من حيث الشكل والمحتوى. ثمّ حقق النصّ مقارنا بين النسخ وشارحا بما يستحقّ الشرح. وختمه بفهارس متنوّعة.

البحث الرابع :

قام فيه سعد غراب بإشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام بتحقيق القسم الأوّل من المجلّد الثالث من الرّحلة الحجازيّة لمحمّد السّنوسي، في أكتوبر 1971، في هذا البحث قسمان :

1 - القسم الأوّل : نجد فيه تعريفا بصاحب الرّحلة وهو محمّد السّنوسي المولود في سنة 1260/ 1850 والمتوفّى سنة 1318/ 1900، وفيه كذلك تعريف بالرّحلة المحفوظة تحت رقم 16634 بالمكتبة الوطنيّة بتونس وتحتوي على ثلاثة مجلّدات :

- المجلّد الأوّل : فيه تمهيد في 4 صفحات وأنموذج تحدّث فيه عن مزيّة السّفر من ص 4 إلى ص 25. وفيه كذلك الجزء الأوّل من الرّحلة وهو الذي خصّصه لما رأه في إيطاليا ويمتدّ من ص 25 إلى ص 181.

المجلّد الثاني : ذكر فيه ما رآه بالأستانة وآسيا الصغرى من ص 183 إلى ص 272.

- المجلّد الثالث وسمّاه خاتمة : ترجم فيه للعلماء والشخصيات الذين اتّصل بهم وخاصّة محمد ظافر الذي نجد ترجمته في بداية هذا المجلّد.

2 - القسم الثاني : التحقيق : ويستغرق النصّ

المحقّق اثنتين وخمسين صفحة من أوّل المجلّد الثالث الذي سمّاه خاتمة ويحتوى هذا النصّ على :

- تمهيد في صفحة واحدة أكّد فيه على ضرورة «اصطياد» العلماء أثناء السّفر.

- ترجمة محمد ظافر وهو شيخ طريقة صوفيّة كان السّلطان عبد الحميد أحد أتباعها. وأثناء هذه الترجمة يستطرد الكاتب للحديث عن الطرق الصّوفيّة.

البحث الخامس :

قام به محمد عجينة وعنوانه «تحقيق جزء من كتاب «المشرّع الملكي في سلطنة علي تركي لمحمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي. تحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السلام ونوقش البحث في أكتوبر 1972.

بدأ المحقق بضبط حياة المؤلف الذي كان حيّا سنة 1185/ 2-1771. ثمّ تحدّث عن مصادره وعن كتابه «المشرع الملكي» : وهو كتاب يحتوي على أربعة أبواب خصصت لتأريخ الفترة الأولى من العهد الحسيني زمن البايات الأربعة حسين بن علي وعلي باشا ومحمد باي بن حسين وعلي باي بن حسين. وتناول التّحقيق الجزء الخاص بعلي باشا وهو يمتد من رجوعه من الجزائر بجيش لمقاتلة عمّه حسين باي إلى نهاية عهد علي باشا. ويشمل هذا الجزء المحقّق قسما من الباب الأوّل والباب الثاني. كما نجد تحقيقا لملحقين في نهاية هذا البحث : خُصّص الأوّل لحصار القيروان وخُصّص الثاني لتفصيل الأسعار سنة 1139/ 1726. وقد اعتمد الباحث في تحقيقه على النسخ المخطوطة بدار الكتب الوطنية تحت عدد 5265/ 5249/ 12622/ 10868. بتونس.

البحث السادس :

قام به عبد الرّحمان الكبلوطي وعنوانه «محمد الفائز القيرواني حياته وأغراض شعره وأسلوبه وترتيب ديوانه وتحقيقه.» تحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام ونوقش في جوان 1973 يشتمل هذا البحث على 4 أقسام :

- القسم الأول : ضبط فيه مراحل حياة الشاعر (ولد بالقيروان 1320/ 1902 وتوفي بالمنستير 1373/ 1953). وذكر نشاطه الأدبي والاجتماعي والسّياسي.

- القسم الثاني : درس فيه أغراض شعر محمد الفائز القيرواني.

- القسم الثالث : جمع فيه ديوان الشاعر من مصادر مختلفة ثمّ رتّب المادّة وحقّقها على النحو التالي : قسم شعره الوطني، وقسم شعره الوجداني، وقسم للمراثي وقسم لشعر المناسبات.

البحث السابع :

قام به سعيد بن عثمان وحقق فيه الجزء الأوّل من كتاب «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع لابن زكرياء الأندلسي» بإشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام، ونُوقش البحث في جوان 1974.

اعتمد الباحث في عمله على ثلاث مخطوطات بدار الكتب الوطنية بتونس تحمل الأرقام التالية 3433/ 1407/ 18120.

وقد بدأ المحقّق في مرحلة أولى بتقديم النّسخ والتعريف بمؤلّف الكتاب والمترجم، ذلك أنّ صاحب الكتاب وهو ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي المعروف بالرّبّاش أو المرباش المولود حوالي 912/ 1583، جاء إلى تونس وتولّى منصب آغا حلق الوادي في عهد مراد باي المتولي الأمر بعد يوسف داي، وكان قد شارك في عدّة حروب مع الإسبان وضدّهم وكتب كتابا بالإسبانية سنة 1040/ 1631 عرّبه ترجمان سلاطين مراكش أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه القاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي وانتهى من تعريبه سنة 1048/ 1639.

وفي مرحلة ثانية قام الباحث بتحقيق مقدّمة الكتاب و19 باشا من جملة 50 بابا هي كلّ ما يحتويه هذا الكتاب :

- الباب الأوّل أورد فيه المؤلف وصايا لأصحاب المدافع.

-الباب الثاني إلى الباب 11 : وصف أنواع المدافع وبيّن خصائصها باستثناء مدافع الحجارة.

- الباب 12 وصف فيه مغارف التّعمير.

- الباب 13 : بيّن فيه كيفيّة الرّمي بالمدافع.

- الباب 14/ 15/ 16 : تحدّث فيها عن أسرّة المدافع وعجلاتها.

- الباب 17/ 18/ 19 : خصّصها للحديث عن مدافع الحجارة.

البحث الثامن :

قام به محمّد شقرون وعنوانه «الأحداث التاريخية في تونس (فيما بين 1824/ 1855)» من خلال مجمع الدّواوين التونسيّة للسنوسي : تحقيق ودراسة تحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام ونوقش في 20/ 6/ 1977.

في هذه الدّراسة قسمان :

- القسم الأول جمع فيه الباحث القصائد ذات الإشارات التاريخيّة وحقّقها بالاعتماد على مجمع الدواوين التونسيّة» وتوجد منه ثلاث نسخ بالمكتبة الوطنية بتونس تحت عدد 1662/ 16633/ 16628. كما اعتمد في كتاب «العقد المنقذ» لمحمد ابن سلامة (مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 18618) وكتاب «أشهر ملوك الشعر والنثر» للباجي المسعودي (مخطوط بدار الكتب الوطنيّة بتونس رقم 2515).

- القسم الثاني : حاول فيه الباحث استخراج ما تضمّنته تلك القصائد من إشارات تاريخية جدّت في تلك الفترة كالولاية وورود الخِلع السلطانية والمباني... إلخ.»

وأهمّ شعراء هذه الفترة هم محمد بن سلامة ومحمد السّنوسي ومحمد الخفّار ومحمد الأصرم، ومحمود قبادو.

البحث التاسع :

قام به توفيق الزّيراوي وعنوانه «تحقيق جزء من كتاب «المشرّع الملكي في سلطنة علي التركي» لمحمد الصّغير بن يوسف الباجي، تحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام ونُوقش في 20 جوان 1277.

هذا العمل هو تتمّة لبحث السيد محمد عجينة (انظر المبحث رقم 5) الذي حقّق فيه القسم الأوّل من دولة علي باشا.

وفي هذا البحث قسمان :

- القسم الأوّل عرّف فيه الباحث بالمؤلف وهو محمد بن محمد بن محمّد الصّغير بن يوسف الباجي الذي عاش تقريبا بين سنتي 1112/ 1700 - 1185/ 1772. وقد أهملت ذكره كتب التّراجم لأنّه لم يكن صاحب خطّة رسميّة أو عالما مشهورا.

- القسم لثاني : حقّق فيه الباحث القسم الثاني من دولة علي باشا. ويمتد هذا الجزء من الفصل المعنون بـ «ذكر مجيء الجزيريّة والبايات ونزولهم على قلعة الكاف، إلى الفصل المعنون : «فشل ثورة العسكر ومبايعة أهل الحلّ والعقد لمحمد باي».

وقد اعتمد الباحث في تحقيقه علي نسختين بالمكتبة الوطنية بتونس عدد 5265 وعدد 5259.

البحث العاشر :

قام به علي العريبي وعنوانه : «تحقيق المقامة الفخريّة في فضل الدّولة الحسينيّة، والعزّ الدّائم والسّعد القائم : وهما مقامتان لمحمّد الدّالي التّونسي،

تحت إشراف الأستاذ أحمد عبد السّلام، ونوقش البحث في 13/ 6/ 1978.

بدأ الباحث في مرحلة أولى من بحثه بوضع الإطار التّاريخي للإيالة التونسيّة من سنة 1272/ 1855 إلي سنة 1278/ 1861 وهي الفترة التي كتب فيها محمد الدّالي التونسي مقامتيه. ثمّ ترجم للمؤلّف الذي كان حيّا في سنة 1277/ 1-1860. وقدّم لنا المخطوطة التي اعتمدها في التحقيق وهي نسخة من مكتبة المخطوطة التي اعتمدها في التحقيق وهي نسخة من مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 18903 وذكر الباحث أنّ المقامتين تندرجان في نطاق كتابة التّاريخ الرّسمي للدولة الحسينية الذي لا يخلو من مدح وتنويه بأسلوب أدبيّ مسجّع.

وفي مرحلة ثانية حلّل الباحث المقامة الأولى التي تحتوي على ثلاثة أقسام :

- القسم الأوّل وفيه مقدّمة تعرّض فيها المؤلّف إلى الظروف النّفسيّة التي كتب فيها مقامتيه.

- القسم الثاني : فيه أخبار المشير محمد باي.

- القسم الثالث : وفيه ثورة غومة المحمودي بناحية الأعراض ببلد الحامّة.

أما المقامة الثانية فقد خصّصها المؤلّف للحديث عن تجديد بيعة الصادق باي على مقتضي قانون عهد الأمان وابتداء العمل بالمجالس التي انبثقت عن هذا القانون.

وفي مرحلة تالية نظر الباحث إلي المقامتين من حيث القيمة الأدبية واللغويّة ومن حيث القيمة التاريخية ثم قام بتحقيقهما (يتبع).